اليسار المسكون بهاجس التغيير

أ. حبيب صادق
أمين عام المجلس الثقافي
للبنان الجنوبي

... اسمحوا لي أن أستهلَّ مقالي، في هذا المقام، بتوجيه أطيب التحيات إليكم كافة مقترنة ببالغ الشكر لكم على جميل تلبيتكم لدعوة المجلس الثقافي للبنان الجنوبي إلى المشاركة في هذا الحفل الثقافي الحاشد الذي يقيمه المجلس بالتعاون مع وزارة الثقافة في إطار «بيروت عاصمة عالمية للكتاب» وذلك احتفاءً بصدور كتاب « نحو نهضة جديدة لليسار في العالم العربي» للصديق الحميم كريم مروة.

ولعلَّ من المفيد القول: أنَّ هذا الكتاب الجديد يأخذ الرقم الواحد والعشرين في لائحة الكتب التي وَسِعَ كريم مروة أن يصدرها تباعاً، في مسيرته الكتابية الطويلة. علاوة على ما لا يُحصى من الدراسات والمقالات التي زوَّد بها الكثير من المجلات والصحف العربية وغير العربية.

ومن يتابع كريم مروة في مسيرته هذه يستوقفه، باهتمام وإعجاب، ليس الكم الغزير من الكتابات، المتعددة المواضيع والصيغ فحسب، بل يستوقفه، أيضاً، أمران لافتان، يتجلَّى الأول منهما في كونه أحد قلَّة قليلة قُيِّض لها الخوض، في خضم هذه الصناعة، من رموز مؤسسة حزبية، ذات تاريخ عريق ساطع، تأسَّست، إذ تأسّست، على أنضج وأعمق ما أبدعه الفكر الإنساني من طاقةٍ تنويرية نهضوية لتغيير العالم بأسره.

وفي حدود معرفتي، فإنَّ كريم مروة، هو، على تفاوتٍ في الكم والكيف، أحد

تلك القلّة التي لا يتجاوز عددها الثلاثة لا أكثر. أما الإثنان الخالدان فهما شهيدا الفكر والموقف حسين مروة ومهدي عامل.

ترى ألا يدعو هذا الواقع الماثل إلى التساؤل والأسى؟؟

هذا عن الأمر الأول، أما الأمر الثاني فيتجلّى في ذلك الهاجس المتّقد، هاجس التغيير، الذي صدرت عنه، ولّما تزل، كتابات كريم مروة في السياسة والإجتماع والأدب وفي شؤون فكرية ونظرية. كتابات أرسلها في الناس، إبّان عمله الطويل، في موقع قيادي متقدّم في الحزب الشيوعي اللبناني، ثم تابع إرسالها في الناس بعد انقطاعه التنظيمي عن هيكل الحزب وانصرافه إلى الاجتهاد في البحث وإعادة النظر في الكتابة...

وحسبي، للتدليل على ذلك، أن أشير إلى أنّ خمسة من مؤلفاته الأخيرة قد أنشأها مسكونةً بذلك الهاجس المهيمن، فثلاثة منها تولّت نشرها دار الفارابي، ذات الإتجاه اليساري المعروف، وهي على التوالي: « نحو جمهورية ثالثة» (٢٠٠١) و «عشية أفول الإمبراطورية، أسئلة حول موقعنا في عالم الغد» (٢٠٠٣) ثم « الفكر العربي وتحولات العصر» بمشاركة ستة عشر مفكّراً عربياً (٢٠٠٦).

أما الكتابان الآخران، فقد صدرا عن غير هذه الدار وهما: «أزمة النظام العربي وإشكاليات النهضة» بمشاركة ثلاثة مفكّرين عرب (٢٠٠٦) و «في البحث عن المستقبل» (٢٠٠٩).

في ضوء ما تقدّم، نجد كريم مروة في كتابه الصادر حديثاً عن دار الساقي «نحو نهضة جديدة لليسار في العالم العربي» يغذ السير قُدُماً، في الطريق الذي رسمه لنفسه، للتعبير بالمزيد، من الكتابة، عن هاجسه الأصلي المتمثّل بفكرة التغيير.

في هذا الكتاب الجديد، كما في كتبه السابقات، يطالعنا كريم مروة بما يشبه لزوم

ما يلزم يفيد أنَّ كلَّ ما يبسطه من أفكار وآراء واقتراحات لا يعدو كونه محاولةً، مجرد محاولة، لا يرمي، من ورائها، إلى عرض أفكاره وآرائه واقتراحاته فحسب بل يرمي، أيضاً، إلى دعوة الآخرين إلى الخوض في خضم نقاش مشرع الأبواب على الإضافات النقدية الموضوعية.

بيد أنَّه في كتابه الجديد بدا أكثر دقَّة في تحديد إطار النقاش إذ رسم، في القسم الأول منه، معالم مشروع جديد لليسار في العالم العربي محدِّداً له، بالأرقام، عشرين مهمة، مفصَّلة باقتصاد، أسماها قضايا، وطالب اليسار الجديد في أن ينهض بها بروح المسؤولية العالية، ثم ألحق بالقسم الأول قسماً ثانياً وأخيراً، تضمَّن نصوصاً منتقاة من فكر ماركس، ومن فكر كبار الماركسيين الأوائل، لكونه رأى فيها «ما يخدم الأفكار والإقتراحات التي قدَّمها حول ما يزعم أنَّه يصح أن يكون مساهمة في صناعة مشروع جديد لليسار في العالم العربي، وذلك باسم اشتراكية ماركس؛ أو باستلهام الأساسي من أفكاره فيها، وبالإستناد إلى منهجه المادي الجدلي...»

وحيث أنَّ الأستاذ كريم دعانا إلى ولوج حلبة النقاش للمزيد من الإسهام في صوغ المشروع النهضوي الجديد، فأستميحكم العذر إذا ما خرجت قليلاً عن هذا السياق العام لأدخل، من فوري، في سياق خاص، لبعض الوقت، متوخياً إلقاء حزمة ضئيلة من الضوء على تلك العلاقة التي انعقدت بيننا في عروةٍ وثقى لا انفصام لها...

فإلى خمسة عقود مضت تعود علاقتي المركَّبة بأبي أحمد. أقول مركبة لكونها علاقة تشكَّلت، مع تعاقب الأعوام، من جملة مكوِّنات انصهرت في بوتقة الصداقة العميقة الخالصة... وحسبي، هنا، أن أشير، إشارة خاطفة، إلى أربعة مكوِّنات منها لا أكثر:

فالمكوِّن الأول ينحدر من صلب الإنتماء، وراثةً، إلى أرض الجنوب الأم الطيِّبة الشامخة القامة وإلى تاريخه الحافل بالمواقف والمآثر. ويتولَّد المكوِّن الثاني من الإنتساب الواحد إلى شجرة الأُسَر الدينية في الجنوب، جبل عامل تاريخياً، فأُسرتانا تنتسبان معاً إلى هذه الشجرة التقليدية. أما المكوِّن الثالث فقد تشكّل تدريجياً، من الهموم والإهتمامات المشتركة المتصلة بوجوه الحياة العامة الراهنة من جهة، وتتصل، من جهة ثانية، بكنوز التراث العربي وبالكتابات المعاصرة في الأدب العربي والفكر السياسي والتاريخ وفي الثقافة العامة. وأما المكوِّن الرابع والأخير فقد نهض بنيانه، مدماكاً مدماكاً، على ما راكمته من خلاصات القراءة النقدية للأوضاع السياسية والإجتماعية والإقتصادية والثقافية في لبنان وفي غيره من البلاد العربية، وعلى ما أفضت إليه تلك القراءة من استنتاجات وعِبَر، ثم على ما خلَّفه، من آثار مجدية، العملُ المشترك في ميادين السياسة والإجتماع والثقافة، وذلك في منأى عن الإنتظام الحزبي أو التأثُّر به.

وفي هذا الصدد لا يسعني اليوم إلاَّ البوح بما كنت أجده في سلوك الصديق كريم تجاهي، من حرصٍ على بقاء العلاقة الثنائية بيننا في حدود الصداقة الخالصة، من دون أن يخالطها طيف من التأثُّر الحزبي. وهذا سلوك يتعارض، كما هو معروف، مع نمط السلوك السائد في الأوساط الحزبية، إذ من شأن الحزبيين، على تفاوتٍ في مواقعهم، أن يبذلوا، قصارى جهدهم، لاكتساب المزيد من المنتسبين إلى أحزابهم.. ولا أُخفي أنَّ ذلك السلوك من كريم تجاهي لاقى عندي صدىً حسناً للغاية فأكبرتُ صاحبه في سرِّي، ولم أحاول الوقوف منه على الدواعي التي حملته على انتهاجه بلا أي تردُّد...

وعاماً بعد آخر راحت العلاقة بيننا تتوثَّق حتى استوت على مقامٍ، وطيد

الأركان، من المودَّة والثقة والإخلاص.

وعلى الرغم من ذلك، فكثيراً ما كنَّا نتفق في الرأي، وكثيراً ما كنَّا نختلف. بيد أنَّ هذا الإختلاف، على تعاقبه، لم يخلخل نسيج تلك العلاقة أو يوهنها بل كان يزيدها تماسكاً وصلابةً.

وعلى هذا المستوى الرفيع من التماسك والصلابة استمرت علاقتنا عقب استقالة كريم من مسؤوليته الحزبية وإنقطاعه إلى البحث والتقصّي في الكتابة، آخذاً بمذهب الاجتهاد في قراءة الأحداث والتحولات، في حقبة شديدة الإضطراب والإنهيارات، شهدت تصدُّعات، متفاوتة في العمق والسِّعة، في مواقف لفيف من القيادات اليسارية في العالم العربي، ما استثار حفيظة قليل أو كثير من رفاقهم القُدامى، فاعتكر جو الثقة وتوتَّرت الصلات واشتدَّت نبرة التساؤل، وقد ذهب نَفَر منهم إلى حدودٍ قصوى في متاهة الإتهام والتجريح فالإدانة.

... تلك مرحلة عصيبة وعصبية تُذكر، اليوم، للدرس والعبرة.

وبعد فاسمحوا لي، ثانية، في أن أعود إلى مجرى الحديث الذي انقطع سياقه العام بإجازة منكم قصيرة.

أزعم أني قرأت النص المهور بتوقيع كريم مروة، برويةٍ وإمعان، فأفدت كثيراً من خطابه المشحون بالجدية والحماسة. فهو، أي النص، خلاصة تجارب متنوعة عميقة كثيرة الأبعاد وبعيدة المرامي، تضافرت على إنتاجها وصقلها عقود ستة من الهموم والشواغل السياسية والإجتماعية والفكرية، ومن مغالبة الصعاب والتحديات المتلاحقة.

بيد أنَّ أول ما استوقفني، إعجاباً، في النص روحان توأمان: روحُ الإخلاص الصميمي في الدعوة وروح الجدِّية الصارمة في المطالبة..

برغم ذلك ففي هذا النصّ، كما في كل نص كتابي آخر، ما يستدعي وجهَيْ التباين معاً: وجه الترحيب والإشادة ثم وجه النقد المتراوح بين الموضوعية والعصبية.. ولما كانت معالم هذه وتلك من الكثرة بحيث يضيق بها وعاء الوقت المحدَّد لنا في هذا الإجتماع، أراني محكوماً بالإختيار القسري، فأسارع إلى اختيار أربعة معالم، لا أكثر، من كل مجموعة من وجهَيْ التباين:

في المجموعة الأولى

أولاً: أن ينطلق كريم مروة، في مشروعه النهضوي، من موقع اليسار، تحديداً، وأن يخاطب به قوى اليسار، على تعدد أطرافها، في العالم العربي، فأمرٌ يستدعي الترحيب والإشادة بلا أدنى ريب، فكيف إذا أضفت إلى ذلك تقديره البالغ للدور التاريخي الذي قام به اليسار القديم ذهاباً إلى القول: أنَّ «اليسار الجديد، الذي يسعى إلى إظهاره وإبراز عناصره ومكوِّناته، إنَّما ولد من رحم القديم ثم يحاول أن يتجاوزه من دون أن يتنكَّر له، ومن دون أن ينفي انتسابه التاريخي له».

ثانياً: مصارحته القوى اليسارية، في سياق حديثه عن المهمة التاريخية التي تواجهها، راهناً، بأنَّها ليست مهمة سهلة على الإطلاق، بل هي شديدة التعقيد والصعوبة على الرغم من ذلك تجده يبادر إلى القول بثقة: «فلا خيار أمام هذا اليسار، سوى الدخول في التجربة من جديد، بواقعية قصوى وبنفسٍ طويل، والسير قدماً في اتجاه المستقبل تحت شعار التغيير الديمقراطي».

ثالثاً: دعوته الملحَّة إلى قيام الدولة الوطنية الديمقراطية، برغم أنَّ الرأسمالية المعولمة قد تجاوزت، في تطورها العاصف، حدود الدولة الوطنية وحدود الدول كلِّها، مع ذلك لم يتردَّد في الكلام: «أن الدولة الوطنية تستطيع أن تمارس نوعاً من الرقابة على حركة الرأسمال، ومن شأن هذه الوظيفة الأساسية للدولة أن تجعلها

ضامنةً لانتظام الحياة الاجتماعية، وهذا ما يحول دون وقوع موبقات شنعاء كالجريمة المنَّظمة والفساد وسرقة خيرات المجتمع»...

رابعاً: انتقاله، من الحيِّز المحدود، في الزمان والمكان، إلى الحيِّز اللاَّمحدود، في تصوير هاجسه بفكرة التغيير. ومن فرط استغراقه بهذا الهاجس تجده ينتقل بك من أرض الواقع القائم إلى سديم الحلم الهائم. فإذ به يرى في ما يرى النائم، السديد الرؤيا، أنَّ نظاماً عالمياً جديداً يبزغ نجمه الوردي في الأفق الشفيف، فيسارع إلى رسم فاتحة الطريق إليه من إدراكٍ عميق لمعاني «المهمة التاريخية التي بدأها ماركس، قبل ما يزيد على قرن ونصف قرن، ألا وهي مهمة تغيير العالم التي ستظل مهمة الأجيال الجديدة للبشرية جيلاً بعد جيل».

هذا بعض ما وسعني قوله في شأن بعض المعالم في النص التي تستدعي الترحيب بها، أما في شأن المعالم التي تستدعي النقد الموضوعي، فأكتفي بطرح ما يصلح، ربما، لمزيد من النقاش.

في المجموعة الثانية

أولاً: إنَّ ما يطالع القارئ اليساري، مبثوثاً بكثرة في ثنايا النص، كلامٌ يفصح عن أنَّ التغيير مهمة أساسية من المهمات التي يتعيَّن على اليسار الجديد الإضِطلاع بها، تجسيداً عملياً ليساريته. ولكن حين يمعن القارئ النظر في طبيعة المهمات التي أوردها صاحب النص، يجدها أقرب إلى طبيعة الإصلاح ليس أبعد. ذلك لأنَّ التغيير، الجذري بخاصة، له دلالة بنيوية، لا يخطئ إدراكها الوعي النقدي، لكون التغيير، بحكم طبيعته يُحدث تغييراً في صلب بنية السائد، بكامل مكوناته، فيزلزل تحصينات الواقع القائم، واحداً بعد الآخر، ويهمِّش كوابحه، جملةً وتفصيلاً.

بالمقابل، فإنَّ الإصلاح، بحكم طبيعته هو الآخر، لا يتحرك إلاَّ في أحشاء بنية

السائد مقيَّداً بشرط احترام «الشروط الواقعية»، على نحو ما جاء في النص تكراراً. إذاً فأقصى ما يرمي إليه الإصلاح أن يُحدث ترميماً أو تجميلاً في هيكل السائد، أو يُجري تعديلاً في تشريعاته الخاضعة، بدورها، لقانون النظام المهيمن، كأن يُصار، مثالاً، إلى إجراء تعديل شكلي في قانون الإنتخاب النيابي أو البلدي...

ثانياً: يأخذ القارئ اليساري، على صاحب النص، إغفاله القيام بمراجعة نقدية موضوعية لتجربة اليسار، اللبناني في الأقل، لا سيما أنه أمضى ردحاً طويلاً من عمره في موقع متقدم في قيادة أحد فصائله البارزة. ثم يأخذ عليه، أيضاً، إغفاله الوقوف عند ما أحرزته قوى اليسار العربي، بنضالاتها المرهِقة على مدى عقود، من نجاحات سياسية واجتماعية وأدبية وثقافية وفكرية وما حصدته، في الوقت عينه، من خيبات وانتكاسات مريرة، تبقى مادةً تاريخية تصلح للدراسة والإعتبار...

ثالثاً: يسجِّل القارئ اليساري على صاحب النص أنه تقصَّد، عامداً، عدم إيراد كلمة اشتراكية في أي مهمة من المهمات التي اقترحها على أهل اليسار، مبرِّراً ذلك باسترشاده بموقف لينين في برنامجه المعروف «بالسياسة الاقتصادية الجديدة».

وهب أنَّ لينين، يقول القارئ اليساري، لم يتحدث في ذلك البرنامج عن الاشتراكية، فهل سقطت الإشتراكية من برنامج حزبه التاريخي؟ الحزب الذي كان يضع الإشتراكية في رأس المهمات الإستراتيجية التي يسعى إلى تحقيقها، ثم إنَّ صاحب النص هو بالذات، كما سبقت الإشارة، من «رأى في فكر ماركس ما يخدم أفكاره واقتراحاته للإسهام في صوغ مشروع جديد لليسار وذلك باسم اشتراكية ماركس أو باستلهام الأساسي من أفكاره فيها».

والجدير بالذكر، هنا، أنَّ الإشتراكية، هي أكثر من مهمة، إنَّها الأُفق الذي تندرج في سياقه شتى المهمات التي يضعها نصب عينيه حزب يساري (ماركسي)،

والإشتراكية هي وحدها التي تضع في مقدم مهماتها الأساسية، مهمة القضاء النهائي على التفاوتات الاجتماعية وعلى استغلال الإنسان للإنسان في هذا العالم.

رابعاً: كما يسجِّل القارئ اليساري على صاحب النص أنه ذهب بعيداً في موقفه من الطبقة العاملة، في كونها ضمرت حجماً وضعفت قدرةً وفقدت دورها في ظل الرأسمالية المعولمة، كما ذهب بعيداً في تقدير التحولات التكنولوجية، التي يشهدها العصر الحديث، أو في توسيع نطاق خيراتها على «جميع البلدان غنيّها والفقير...» كما يقول حرفياً.

ليس لي من المعرفة ما يخوِّلني الخوض في غمار هذا البحث الصعب المراس، من هنا ألجأ إلى أحد سادة المعرفة الأفذاذ في مجتمعنا العربي هو سمير أمين، فأستعين برأيه على تحقيق مرادي إذ يقول..« إنَّ كل ثورة تكنولوجية تحوِّل، فقط، البنى التنظيمية للعمل، وإذا كان المجتمع طبقياً فلن تُلغى هذه الطبقات بفعل التحوُّل المذكور، بل ستغيِّر من شكلها، ولعلَّها، إلى درجة ما، توهم باختفائها كما هي الحال الآن».

ثم يسأل سمير أمين نفسه في شأن التحولات في تنظيم العمل فيقول: « فما هي، يا ترى، النتائج الإجتماعية الحقيقية المترتِّبة على التحولات السائدة؟!

ويسارع إلى الإجابة بالقول: «الصعود السريع والإستثنائي في نصيب عوائد رأس المال المعولم والملكية على حساب عوائد العمل، التهميش والفقر، والإقصاء لأقسام ملحوظة من الشعوب».

هذا في شأن الأثر الطبقي لتحولات الثورة التكنولوجية.

أما في شأن اتساع نطاق خيراتها على مختلف أقطار العالم وفق ما جاء في متن النص «أنَّ ثورة التقنيات والمعرفة والإتصالات قدمت للشعوب، في جميع البلدان،

الغنية منها والفقيرة، المتقدمة منها والمتخلفة، على حد سواء، الأدوات التي توفِّر للإنسان امتلاك المعارف في ميادينها المختلفة من دون عناء».

أما في هذا الشأن فحسبي أن أورد ما جاء على لسان عالم الاجتماع جاك قبانجي وخلاصته: «أنَّ ما تنتجه ثورة المعرفة والإتصالات من مفاعيل تقع في دائرة التداول والإستهلاك، فيما دائرة الإنتاج تقع خلف هذا النتاج، كما تحدد محتواه ونوعه وكميته وهدفه.. ترى هل تتوحَّد كل شعوب الأرض على مسافة متساوية من دائرة الإنتاج هذه؟! وهل من يستهلك النتاج (المعرفة أو المعلومة) كمن ينتجها؟! ثم أين يقع هذا كله من عملية تقسيم العمل على الصعيد الدولي؟؟! وكيف تبرز مفاعيل الإستغلال الرأسمالي المكثف لقوة العمل الرخيصة في بلدان الأطراف؟!

وبعد فأجدني، أميل إلى، في نهاية المطاف، إلى الأخذ بمذهب القائلين بأن اليسار، الماركسي بخاصة، مطالب اليوم، برغم هزاله وتشتّته، بأن ينتفض من ركوده المزمن وبطالته الفكرية، ويتقدم من جديد للقيام بدوره الطليعي في جمع أطراف اليسار الديمقراطي العلماني والعمل معاً على صوغ برنامج نهضوي جديد، وتحديد آليات التنفيذ المرحلي باتجاه تحقيق الديمقراطية والمساواة والعدالة الاجتماعية، بأفق اشتراكي، وإقرار علمنة الدولة ومبدأ المواطنة وتحديث المجتمع وتعزيز الحراك العربي الديمقراطي التقدمي، والسعي، المنهجي الدؤوب، إلى تحرير الأرض العربية المحتلة، بشتى السبل المتاحة، في فلسطين والجولان وفي جنوب لبنان.

ولا شك في أن الهيئة المختارة ديمقراطياً للإضطلاع بمهمة صوغ البرنامج المنشود لسوف تستضيء بما جاء في مشروع كريم مروة، المدرج في كتابه «نحو نهضة جديدة لليسار في العالم العربي» وبما جاء في مشاريع أخرى صاغها أو يسعى إلى صوغها يساريون ديمقراطيون علمانيون هنا في لبنان وهناك في سائر الأقطار العربية.

وأخيراً يشرفنا أن نعرب، باسم المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، عن بالغ تقديرنا وجزيل شكرنا لسادة هذا المنبر، وهم من أفذاذ المفكّرين والباحثين وقد جاؤوا إلى بيروت: عاصمة الكتاب والحرية والأسئلة، من فلسطين ومصر وتونس وفرنسا إضافة إلى المشاركين اللبنانيين وفي مقدمتهم الصديق الدكتور طارق متري وزير الإعلام.

وفي الختام يسعدنا، بالغ السعادة، أن نعرب عن أطيب التمنيات للصديق الحميم أبي أحمد، كريم مروة، في مناسبة بلوغه الثمانين من عمره المكتنز بالمنجزات المهمة، قولاً وعملاً، وبالمشاريع المستقبلية، المثيرة للجدل والسجال، آملين أن يمضي قدماً في مسيرته الكتابية، بحثاً وكشفاً وعطاءً، باتجاه المستقبل السعيد المضيء، مستقبل الإنسان في أرض العرب كافة، والإنسان في جنبات الأرض قاطبة..